أن الرَّسول ﷺ بحقيقته المُحَمَّديَّة ، لا بصورته الجَسَديَّة ، يُعَدُّ مبدأ العالم ؛ إذْ هو النّور الذي تفجَّرت من يَنابيعه جميع أنوار النُّبوّات ، و وجودُه هو السّابق لكلِّ موجود .[١]

وحينما قضى صلاح الدّين الأيّوبي على الخلافة الفاطميَّة في سنة ٥٦٧ وأبطل رسومَها وأعيادَها ، لم يَسْتَبْقِ من هذه الأعياد إلا المولدَ النَّبويَّ ، ولا شكَّ أن ذلك راجعٌ إلى عمق الشُّعور الدّينيِّ لدى المصريِّين ، وإلى التَّأثير المُتَزايِد للحركات الصّوفيَّة في مصر وما جاورها من الأقطار . فنحن نعرف أن هذه الفترة من أواخر القرن السّادس الهجريِّ ، كانت هي التي بدأت فيها الطُّرُق الصّوفيَّة تتَّخذ شكل مؤسَّسات مُحْكَمَة التّنظيم ، وشرعَتْ تستهوي قلوب النّاس ، ومن هذه الطُّرق : القادِريَّة ، طريقة عبد القادر الجِيلاني (المُتَوَفّى سنة ٥٦١) ، والرِّفاعِيَّة ، طريقة أحمد الرِّفاعي (المُتَوفّى سنة ٥٧٨) ، وشجَّع صلاح الدين نفسُه هذه الحركات ؛ فقد أقام أوَّل خانْقاه للصّوفيَّة في سنة ٥٦٩ ، و وَقَف عليه أوقافًا كثيرة . وظهر في مصر من الصُّوفيَّة في أواخر العصر الفاطميِّ ابنُ الكيزاني (المُتَوَفّى سنة ٥٦٢) وفي العصر الأيوبيِّ سلطان العاشقين ، عُمَر بن الفارِض (المتوَفّى سنة ٦٣٢) .

ولا شكَّ في أن من العوامل التي أعانت على نشر التَّصوُّف ، وحملت المسلمين على العودة إلى شخصيَّة الرَّسول ﷺ وسيرتِه ، يستَخْلصون منها العِبْرَة، ويستَمِدّون منها العَوْن ، هو تعرُّضَ عالَم الإسلام لتلك الهجَمات الجائِحَة التي نفذتْ إلى صميم البِقاع الإسلاميَّة في بلاد الشَّام ، والتي تمثَّلت في المَغول من جهة الشَّرق والصَّليبيِّين من ناحية الغرب ؛ فقد أيقظت هذه الهجماتُ – التي استهْدَفَت الإسلام في عُقْر داره – مشاعرَ المسلمين ، وجعلت للمُتصوِّفة في نفوس الشّعب مكانةً راسخةً مرموقة ، لاسيَّما وأن

(١) للمستشرق ماسينيون دراسة طويلة قيِّمَة للحَلاج ومِحْنَته ، نشرت في باريس سنة ١٩٢٢ ، وانظر تاريخ الأدب العربي ، العصر العبّاسي الثاني ، ج ٤ ، ص ٤٨١ ، حيث يقدم خُلاصَةً لفِكْره .